الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

موقع فينيقية

يفهم بفينيقية عند فريق من علماء الجغرافية البقعة الخصبة الممتدة على ساحل البحر المتوسط او بحر الروم من النهر الكبير «اليتروس» الفاصل بين جبال النصيرية وجبال لبنان في الشمال الى ما وراء جبل الكرمل في الجنوب ومن شاطئ البحر في الغرب الى قرية تل القاضي « لاليس او بالايس او دان » في الشرق . وفي اعتبار فريق آخر منهم كانت فينيقية تبتدئ في الشمال من نهر بلنياس « بالانيا » عند قلعة المرقب وتمتد طولاً الى جهة الجنوب من وراء الكرمل الى الطنطورة « دورا أو قلعة الغرباء » في بلاد نابلس وعرضاً من شاطئ البحر على خط منحرف نحو الجنوب الشرقي من وراء جبل لبنان ودمشق الى بادية الشام . وكانت قسمين فينيقية البحرية وتشمل حيفا وعكاء وصور وصيداء وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وعمريت « ماراتوس » واللاذقية وقاعدة هذا القسم مدينة صور . وفينيقية اللبنانية او الجبلية وتشمل دمشق وبعلبك وعرقه وبانياس « قيصرية فيلبس » وعكار . ومن المؤرخين من ذكر في جملة المدن الفينيقية اسبرتا وصرفت « صرفند » وارواد وجبلة وزمره «سيميرا» وارتوسيا أو شمرون وطرطوس وقلموس « القلمون » وجيفارتوس « انفه » وتريباريس وبالي بيبلوس « جبل القديمة » وخلدوا « خلدة » وبورفيريون « الجيّة » وتلذانا « قيصرية » وافقا أو عفقون وسرعة واوس « اسكندرونه » وكيكنا « ام العواميد » واكديا «ازيب» . واقدم هذه المدن صيدون وهو مذهب هوميروس وسواه

اسم فينيقية

اما اسم فينيقية ففي تفسيره اقوال واول من اطلقه على هذه البلاد اليونان واللاتين ويذهب مسيرو الى انه مأخوذ من لفظة فون أو بون المراد بها في الآثار المصرية بلاد العرب الشرقية وشاطئ خليج العجم موطن الكنعانيين الاصلي ثم الحق العرب بهذه اللفظة حرف النسب فاصبحت « فونيتي » أو « بونيتي » . غير ان هنالك من العلماء من يرتاب في صحة هذا الرأي

اصل الفينيقيين

والفينيقيون من الشعوب الكنعانية الاولى التي جاءت الى بلاد سام من جهة الجنوب واقامت فيها واختلطت بالآراميين ولهذا كانوا يعرفون ايضاً بالكنعانيين ومن ثمَّ كانوا من اقرب ابناء العبرانيين يتفاهمون بلغة واحدة

هجرة الفينيقيين وانتشارهم

كان للفينيقيين نزعة فطرية الى الاعمال الشريفة وميل طبيعي الى المضي في اعمالهم الى اقصى حد مستطاع حتى ان جرأتهم على اقتحام الاخطار في سبيل الكسب والاستعمار جرت مجرى الامثال عند الشعوب القديمة واتصل تأثيرها الى اعقابهم السوريين واللبنانيين فكانوا قدوة الامم الشرقية فيها. وكان من اخص مميزاتهم الحذق والاقدام والصبر والثبات والاقتدار على الاستنباط والمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم الوطنية والدينية والاستمساك بعروة الجامعة القومية ولاسيما في مستعمراتهم فكانوا في كل بقعة استوطنوها عصبة واحدة. وقد انصرفوا اولاً الى احراز الثروة عن طريق التجارة مسوقين اليها بما كانت عليه بلادهم من ضيق المساحة وقلة الخصب فلم يكن محصولها يفي بحاجتهم ولا سيما بعد استيلاء بني اسرائيل على ما صلح من ارضها للزراعة واكراههم لهم على الانزواء في المدن الساحلية وهضاب لبنان. ومما مهد لهم السبيل الى ذلك توسُّط بلادهم بين آسيا واوربا من جهة وبين مصر وفلسطين وسورية وبلاد العرب من جهة اخرى فكان لهم من مركزهم هذا ما مكنهم من انشاء صلات تجارية وثيقة بهذه البلدان والتذرع بذلك الى التوسع في استثمار مواهبهم الفطرية فطمحت ابصارهم الى البلدان السحيقة فجابوها واختلطوا بشعوبها وانشأوا فيها مستعمراتهم ونشروا الوية نفوذهم وتمدنهم في اقصى الاقطار وكانوا صلة التعارف والقربى بين الشعوب الاسيوية والاوربية والافريقية. وقد انشأوا على ساحل البحر المتوسط كثيراً من المستعمرات واموا قبرص ورودس واكريت والجزر اليونانية وصقلية واريكيس ومالطة وكورفو ولاسيادوسا وكورسكا وماجوركا وترشيش في اسبانيا وقرطجنه وسواها. وجاوزوا البحر المتوسط الى ما وراء جبل طارق فحلوا في جزر بريطانيا وشمال فرنسا وبلجكا. ووجدوا بين سكان اميركا الاقدمين قوماً منهم. واتجروا مع البلاد المتاخمة للبحر الاحمر وكانت مدينة العريش محطة لقوافل بلاد العرب وبابل وسائر واردات الخليج الفارسي والهند وما جاورها من ممالك الشرق الاقصى فتنقلها سفن الفينيقيين الى مختلف الاقطار. وعلى الجملة كانت تجارتهم منتشرة بين سورية ومصر وبلاد اليونان وما بين النهرين وارمينيا وبلدان الكلدان والهند وافريقية واسبانيا وبريطانيا وغيرها من ممالك اوربا الشمالية ولاسيما في البلدان سيادة صور. واخص ما كانوا يتجرون به في تلك الممالك الحجارة الكريمة

والمعادن على انواعها والآنية الزجاجية والاقمشة الثمينة والازجران والآلات الدقيقة وغيرها

ومع ان هجرة الفينيقيين الى خارج فلسطين وسورية كانت نتيجة طبيعية لما حل بالديار الشامية من الضيق وانتابها من الفتن آثر الفتح الاسرائيلي فان ذلك لم يكن أول عهدهم بالهاجرة فقد كانوا يرتادون منذ عهد الرعاة في مصر السواحل الافريقية والاوربية . وانقسموا في هجرتهم الاولى هذه إلى ثلاث نحل . فالنحلة الأولى كانت مؤلفة من الجرجسيين واليبوسيين وقد اجتازت فلسطين الى مصر السفلى ومنها الى ليبية حيث تفرقت في انحاء أفريقية الشمالية والغربية واستعمرت تونس وقرطجنة وكان للفينيقيين هناك من قبل ذلك مستعمرة تجارية فحل اولئك المهاجرون فيها واختلطوا على توالي الأيام بسكان البلاد الاصليين وأدمجوهم فيهم فاتخذوا اسمهم كالافريين واليبيين أو البانيين ولقنوهم آدابهم ومدنيتهم وحكموهم . وعقدوا مع الليبيين اليافثيين خاصة عقود زواج نشأ منها الشعب الليبي الفينيقي وهو الذي بث الحضارة القديمة في تلك الاصقاع وانشأ المستعمرات على ما روى الحجري وغيره من العلماء وابقى قرطجنة المشهورة في حروبها مع الرومان واتخذ البونية لغة له وهي فرع من اللغة الفينيقية . وقد وجدوا اخبار اولئك المهاجرين منقوشة في احجار هناك منها عمودان كتب عليهما بالقلم الفينيقي ما ترجمتهُ :

« نحن انا سهاربون من امام ذلك اللص يشوع بن نون » وقد ذكر ذلك بروكوب وغيره من العلماء . وسكان افريقية القدماء كانوا يسمون أنفسهم كنعانيين . ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير ان أفريقية سميت باسمها هذا من أوفران الذي جاء إلى ليبيه مع قومه الفينيقيين واستولى عليها فنسبت اليه وما دخل على اسمها من التحريف إنما هو من قبيل ما يقع في أسماء البلدان من الابدال في حروفها الاصلية بحسب اللغات التي تكتب بها هذه الاسماء. وقال ابن خلدون ان تقليد شعوب افريقية الاسلامية ينبيء بأن هؤلاء القوم من نسل العمالقة الذين جاءوا اليها من ارض كنعان

والنحلة الثانية سارت شمالاً وملأت بمستعمراتها وآثارها القسم الغربي من آسيا العليا وجنوب أوربا وأقامت في طريقها كثيراً من الابنية في سوريا العليا وآسيا الصغرى وابنشت في بلاد اليونان وايتاليا وعدة جزر منتشرة بين ثغورها وثغور آسيا مقتفية آثار شعوب آسيا الوسطى التي ملأت تلك الجهات باسم الاذيجيين أو بلاذج وشادوا هناك أقدم مدن أوربا وأحصنها وعرفوا بأسماء مختلفة فامتزج الفينيقيون المهاجرون بهؤلاء البلاذج في كثير من تلك الانحاء ونسبت اماكن كثيرة اليهم لانهم عمروها ونقلوا اليها حضارتهم القديمة

وأما النحلة الثالثة فركبت السفن الصيداوية إلى تاب في بلاد اليونان متبعة الشواطىء بقيادة قدم الذي يُظن أنهُ قدموس بن أجينور ملك فينيقية . وأنشأت في طريقها عدة مستعمرات كهنوتية في جهات مختلفة نظير رودس وجزر سيكلاد وجزيرة تيوتراس وعلى

سواحل بيوتيا في بلاد المورة تجاه جزيرة اوبه حيث شيد قدم قلعة قدمية ومدينة تيبايس قاعدة اقليم بيوتيا . والى قدم او قدموس هذا يعزى تعليم اهل المورة غرس الكرمة . واليه يعزى ايضاً وضع الحروف اليونانية في ما يقول بوكرت وبوصويت وسواهما من العلماء . وقيل ان اصل الاسم حتموس اي حثي وان هذا الزعيم ادخل الى اليونان الحروف الحثية وليس الفينيقية . غير ان الرأي المعول عليه هو ان الحروف التي تلقنها اليونان منه هي الحروف الفينيقية بعينها وانه لو كانت الخطوط الحثية اصلاً لحروف الهجاء عند اليونان ما تعذر حتى الآن حل رموزها . وقد تغلب قدموس على هاتيك الاصقاع وحكمها حقبة من الزمان وخلفه على ولايتها احد السبرتيين من ذوي قربائه ثم استرد الفينيقيون الولاية لهم فانبرى لهم السبرتيون الوطنيون واستمرت سلالتان احداهما كنعانية والاخرى اسبرتية تتنازعان ولاية تاب زهاء ثلاثة قرون . وذهب بعض العلماء الى ان قدموس ارتحل بقومه الكنعانيين أو الفينيقيين الى بلاد اليونان قبل غارة يشوع على فلسطين بعدة قرون . ومما لا ريب فيه انه كان للفينيقيين مستعمرات تجارية خارج فينيقية قبل مجيء بني اسرائيل الى ارض الميعاد بحقبة طويلة من الدهر . ومن الثابت في اعتبار العلماء ان هذه النحلة نشرت علوم الفينيقيين وحضارتهم وصناعاتهم في بلاد اليونان ونقلت اليها كثيراً من عبادات فينيقية وبلاد السريان . وتاريخ اليونان نفسه يقف عند هذا الحد فلا يرتقي الى اقدم منه . وفي هاتيك البلاد آثار كثيرة للفينيقيين تستجلى على الخصوص في اسماء شعوبها ومدنها وابطالها القدماء ودينها ومبادئ فلسفتها وتعدنها ولا سيما في بلاد المورة

على ان الفينيقيين لم ينفردوا في تحضير اليونان بل انه كان للمصريين شأن خطير في ذلك وقد جاءوها قبل الميلاد لنحو الفي سنة . امهما اولاً انتيكوس بنحلة من مواطنيه وأنشأ مدينة ارغوس . وتلاه شيكروبوس المصري بنحلة اخرى وأنشأ هناك اثنتي عشرة دسكرة أو عشر دساكر على زعم بعضهم كانت اساساً لمدينة اثينا . وعلى هذا النحو يكون مرجع التمدن اليوناني الى النحل التي هاجرت الى بلاد اليونان من مصر ثم من فينيقية وادخلت اليها عادات بلادها وتعدنها واخلاق اهلها وعبادتها

مستعمراتهم وتجاراتهم

ومن المستعمرات الفينيقية الاولى قبرس واول من استعمرها اهل جبيل ثم خضعت لصيدون واصبحت على توالي الايام بلداً فينيقيًّا . وقيل بل اول من افتتحها الحثيون والحاتيون وبنوا اهم مدنها نظير تيتيوم وحاتونة « حماسيا نسبة الى حماة » ثم استحوذ عليها الصيدونيون في عهد ملكهم بالوس . ثم استعمر الفينيقيون رودس واموا كريت فشادوا فيها مدينة اتيانوس . واستعمروا جزيرة ثاره وقبشاره وأنشأوا لهم مستعمرات في اولياروس وانتيباروس

وبوس وسيروس او سيرا وسيغنوس وسيصوليوس من جزر الارخبيل ثم جزيرة تاسوس. وقد بلغوا الدردنيل وبحر مرمرا والبوسفور والبحر الاسود ووصلوا الى جنوب جبل قاف وكانوا يأتون منه بالمعادن ولاسيما الذهب والنحاس والرصاص والفضة . واما شواطىء الابير وهي البانيا الجنوبية ووصلوا الى ايتاليا وصقلية. وكان لهم في مصر وعلى شواطئ افريقية مستعمرات مهمة ولاسيما في مصر السفلى وعلى الخصوص في منف على عهد ملوك الرعاة السوريي الاصل وكان نقل تجارة مصر الى الخارج محتكراً لهم ولكن لما طرد الرعاة من مصر تصدت الدولة الثانية عشرة من دول الفراعنة للفينيقيين ووقفت حاجزاً منيعاً دون نموهم وتوسعهم في الاستعمار وسدت عليهم منافذ الكسب في افريقية . اما مستعمراتهم في جزر الارخبيل وما يليها وجاورها من الجزر والسواحل البحرية فظلت زاهرة الى ان انبرى لهم البلاسج وضايقوهم ولاسيما الكفتوريون وهم الفلسطينيون وحالفوهم فاضطروا من ثم الى التخلي عنها واهمالها

وما يقال عن مستعمرات الفينيقيين في جزر البحر المتوسط وعلى شواطئه يقال مثله عن تجارتهم في بابسة آسيا حيث بلغت شأواً بعيداً . وكان لها في تلك القارة ثلاثة فروع رئيسية: فرع الجنوب وفرع الشمال وفرع الشرق

فرع الجنوب — كانت قوافل الفينيقيين تصل جنوباً الى اليمن والخليج الفارسي وحضرموت وعمان ومكة ويثرب وعدن فتأتي منها بالذهب والحجارة الكريمة والبخور والمرّ والعاج والاخشاب العطرية والأبنوس وريش النعام

فرع الشمال — وكانت هذه القوافل تصل شمالاً الى توبل وماشك وهي من الاقاليم المجاورة للبحر الاسود وبحر قزوين وتعرف ببلاد الكرج وارمينية وجبل قاف . وكانوا يجلبون منها الرقيق وآنية النحاس والخيل والبغال

فرع الشرق — وكانت تصل شرقاً الى بابل ونينوى مارة بلبنان وبعلبك وحمص وحماة وحلب وازها ونصيبين حتى تبلغ بلاد اشور . ومنها قوافل كانت تجتاز بادية الشام الى تدمر ومنها الى تبنك على الفرات وتأتي من هناك بالانسجة القطنية والصوفية الفاخرة والحلى والاثاث والعطور والحجارة الكريمة . وتأتي من بابل بحاصلات آسيا الداخلية المجلوبة اليها من بخارى وفي جملتها الحرير . وكان لهم في طريق هذه القوافل مستعمرات زاهرة اخصها في حماة وفي تبنك على الفرات وفي نصيبين بقرب منبع دجلة . وكانت سفنهم ترتاد خليج العرب والخليج العجمي والاوقيانوس الهندي فتجلب الذهب والفضة وخشب الصندل والحجارة الكريمة والعاج والقردة والطواويس وتجوب شواطىء افريقية حتى قرطجنة . وقد بنوا هناك مدينة هيبون ومدينة كباه التي اقيمت مكانها فيما بعد قرطجنة. وكانوا يتبعون في الاتجار مع الامم البربرية المنحطة طريقة المقايضة وهي متبعة الى اليوم في كثير من انحاء افريقية .

وأما المهاجرون لهم في الحضارة فكانوا يتجرون معهم بالثمن كما هي الحال اليوم بين تجار العصر

ذلك كان شأن المستعمرات الفينيقية في ابان سيادة صيداء . ولما سقطت صيداء وأفضت السيادة الى صور تقلص نفوذ فينيقية من الانحاء الاسيوية والافريقية ردحاً من الزمن . على انهُ منذ ارتفع شأن صور بالتفاف المدن الفينيقية حولها طمحت الى الاستعمار والفتح السعي وكانت افريقية مطمح ابصار الفينيقيين منذ القدم فلها قوم منهم في سنة ١١٥٨ ق. م. وبنوا هناك على شاطىء البحر في الشمال الغربي من قرطجنة مدينة اوتيك وجاءوا الى توميديه المعروفة اليوم بمملكة فاس او المغرب وأنشأوا في انحائها ثلاثمائة مدينة استولى عليها البربر في عهد الاشوريين . ثم انصلوا الى اسبانيا وشيدوا فيها مدينة قادس وسموا هذه البلاد ترشيش وبنوا عدة مدن منها ملاكا وساكس او مرتيل وابدار او بلماريا في الجنوب الشرقي من مدريد. وأنشأوا مستعمرة كرتايا المعروفة اليوم بالجزيرة غرب جبل طارق . وبنوا مدناً اخرى في جهات مختلفة من تلك البلاد حتى بلغوا جبال البرنيه الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا. ولم يمرَّ قرن واحد على مجيئهم الى تلك البلاد حتى افضت اليهم ولاية باتيك في جنوب اسبانيا وهي الاندلس ونشروا هناك عاداتهم وآدابهم ولغتهم . ورسخت لغتهم في تلك الارجاء وظلت لغة الاهلين الى أيام الرومان ولا سيما في قادس وملاكا وساكس وابدار . واتخذ الفينيقيون جزيرة مالطة محطة متوسطة بين فينيقية ومستعمراتهم في اسبانيا وأفريقيا فأقاموا جالية منهم هناك في آخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد واختلطت بأهلها السيبيين . ثم التقوا بمالطة جزيرة كوزوس ونزلوا جزيرة صقلية بعد خروجها من حلقة البلاسج والسيبيين واستعمروها وظلوا فيها اصحاب الكلمة النافذة ثلاثة قرون الى ان جاءها اليونان. واستعمروا جزيرة قشورة « بباتاريا » بقرب صقلية وجعلوها مستودعاً للذخائر والمواد التجارية. وكذلك سرديليا وأنشأوا فيها مدينة كراليس « كياري» ونورا . وأسوا جزيرة كورسكا وشواطىء ايتاليا الجنوبية وتوسكانا فأنشأوا هناك مستعمرات زاهرة . وأوغلوا في فرنسا وألمانيا ووصلوا الى بحر البلطيك براً والى جزر بريطانيا بحراً . وفي القرن السادس قبل الميلاد انقذوا الى شواطىء افريقية الغربية خمسين سفينة ففتحتها واستعمرتها. وعلى الجملة فان تجارة الفينيقيين بلغت في ابان سيادة صور ما بلغته في ولاية صيداء من الخطر والمكانة العليا وربما فاقتها توسعاً وانتشاراً . على ان شهرة الفينيقيين في الاستعمار طوحت بهم الى التغافل عن بعض الاعتبارات الجوهرية فكان هذا التغافل من بواعث فشلهم في ما يلي من الزمن فان اهل صيداء وصور وبيروت وجبيل استقلوا في مستعمراتهم عن مواطنيهم فلم يشاركهم فيها احد من هؤلاء فانحط شأنهم ولا سيما صيداء فانها انفردت في شؤونها الداخلية والخارجية انفراداً جعلها في عزلة تامة عن سائر المدن الفينيقية استئثاراً بالمنفعة واستبداداً بالسيادة والنفوذ وهذا ما احرج موقفها وعجل في انحطاطها وتقلص سلطانها [لها بقية]